غروب !

بقلم :

عبد المجيد لطفي

« هكذا كنا . . . وهكذا سنبقى الى ان نرى الشروق كما رأينا الغروب . . »

كنا عدداً من الأصدقاء في جلسة هادئة على شاطيء دجلة وقد فرغنا من اكلة سمك لذيذة ورحنا نمتع بعدها انظارنا بمنظر النهر العزيز وهو ينساب بهدوء شعري تحت شعاع من الشمس الغاربة !

وكانت احاديثنا متنوعة تتخللها نكات لاذعة نوجهها الى بعضنا باوصاف شاذة غريبة .

لم نكن في الحقيقة شباناً فمعظمنا قد جاوز الثلاثين وانما كانت نفوسنا عامرة بالفرح لسبب كنا نجهله .

ودار الحديث دورة طويلة ليستقر على تمداح فضيلة « العفو عند المقدرة » ولا ادري لماذا طال التمداح لهذه الصفة والدعوة اليها . . كما لا ادري لماذا شدد الاصدقاء على الاخذ بهذا المثل مع انني حاولت مراراً ان احول الحديث ناحية اخرى لانني لم ارتح كثيراً للمبالغات في اشياء قد تبدو مكرمة الى حد ما ولكنها لاتستحق تضحية كبيرة . والظاهر انه كان هناك من يشاركني هذا الرأي فاذا بنا امام لهجة ملؤها الضجر تهزنا من سنة الاحلام والتراخ .

— « اسمعوا ايها الاصدقاء فليس كلما قلتموه صحيحاً .. حقاً ان الانسان يجب ان يعفو عند المقدرة ولكن يجب ان لاتسقط العواطف التي تتحكم فينا من الحساب ! ..

وكنا في شوق شديد الى سماع اية كلمة من هذا الصديق الشهم فقد عاد من حرب فلسطين قبل شهر من لقائنا ذاك وكان قد ذهب اليها متطوعاً مجاهداً املا نفسه الشجاعة والاقدام فعاد بعد بضعة اشهر يحمل في جسده ثلاثة جروح ! ويحمل في قلبه جراحاً اعمق وتذكارات مريرة اوجع ! .

وبعد ان ساد الصمت بيننا قليلا سمعناه يقول . كان في اقوالنا الكثير من المبالغات .. فنحن نمجد الفضائل الوهمية في مثل هذه الجلسات اللطيفة ونحن هادئوا الاعصاب ندعو للخير ونريد نشر المحبة ولكننا في الحقيقة لانستطيع العمل بها عند ماتقف وجهاً لوجه مع فظايع لاتوصف ووحشية لانظير لها .

لقد وقعنا في احد الامسيات في فخ ! . اتسمعون ما اقول ؟ ! في فخ نصبه لنا اليهود ونحن ثلاثة من المجاهدين كنا نبحث عن وكر يصلينا النار ويمنع تقدمنا ويحول بيننا وبين التزود بالماء من المورد الوحيد ..

ان اليهود بارعون في نصب الفخاخ في السلم والحرب فتلك هي مهنتهم ومزاياهم فوقفنا برباطة جأش وبحثنا عن مخرج ولكن النار

« عرف قراء القصص العربي انسحاب القصاص الشهير الاستاذ عبد المجيد لطفي من ميدان الكتابة واوضح بنفسه ذلك في مقاله (النهاية) الذي نشر في العدد [٦٤] غير انه وهو البلبل الذي علم القراء انه لايخرس أمام الحوادث والتوليديات كيف اختار لنفسه ذلك . ولكن البيان الذي يتصل به نفسياً ويحتل اسمى مكانة من روحه ومشاعره تلقى منه قصة خاصة لهذا العدد وأملنا ان يعود كاتبنا الى مجاوبة نفوس قرائه المتعطشين لنتاجه . « البيان »

تسلطت علينا بصورة فظيعة . تلفت حولي فوجدت ان احد اصحابي قد استشهد اما الثاني فكان في صراع مع الموت الضاحك على جرح قتال ..

لقد بقيت وحيداً .. ولم يكن هناك من شيء سوى الارض ... الارض الرؤوم فاتحة صدرها الحار تحتضنني كعربي لا يريد ان تسلب منه !

وكانت النيران لا تقف الا لتثور وكنت امام الموت في كل لحظة ولكنني لم امت .. فهكذا شاءت إرادة الله . وفجاة رأيت رؤساً كثيرة كلها تقترب خارجة من المكمن لتبحث عمن بقى من الاحياء ..

وعند ذاك ذكرت الله ككل مرة ... الله الذي سوانا لنعيش احرارا كراماً ونموت ببطولة وكان الله معي !. القيت بآخر قنبلة او با لقنبلة اليدوية الوحيدة التي كانت معي في وجه الرتل المتقدم فانفجرت تاركة دخاناً وصدى رهيباً ودماراً شاملا ... لم يكن في امكان قنبلة يدويه ان تحدث مثل هذا الفتك ولكن الدمار الرهيب قد حدث .. فلما انقشع الغبار والدخان قليلا احسست بي جرحاً بسيطا ورأيت على بعد قليل هؤلاء المجرمين مبعثرين بدداً فعرفت ان القنبلة اليدوية وقعت مصادفة على لغم ارضي قريب من مستودعهم فاحدثت ذلك الخراب الرهيب .

خرجت من مكمني واعتدلت قليلا فلم اجد حياً يستطيع القيام بحركة . وصعدت المرتفع القليل وبحثت طويلا فلم اجد واحداً منهم فلقد نسف الموضع برمته .. نسفه الله الذى لا يغلب وبعدئذ مضيت ابحث عن الجثث التي فيها دبيب من الحياة لأسعف من استطيع اسعافه فقد كانت الامثلة التي ذكرتموها تعمر جو نفسي « العفو عند المقدرة » وقد كنت في موضع المقتدر ...

كان تحت قدمي احدهم . وكان يتنفس ببطء وجرحه نغار وانينه خافت ولكنه لم يكن مقطوع الامل بالحياة فانحنيت ابحث عن هويته فاذا بي ارتعد فرقاً .. ممن تظنون كنت ارتعد ؟ . من محتويات حقيبته يا اصدقائي ..

لست مبالغاً قط واستطيع ان اقسم على كل حرف وكل كلمة .. لقد وجدت اصبع امرأة وفيه خاتم من ماس ورأيت قرطاً على حلقته بقايا دم طري ووجدت ساعة ملوثة بالدماء ..

تلك كانت غنائمهم من القرى التي إجتاحوها اصابع مقطوعة للحصول على خاتم . . اذن مصلومة للحصول على قرط ، وشهيد تعس قتل للحصول على ساعته .

وتذكرت هؤلاء القتلة . وتذكرت ضحاياهم من الفتيات المروعات اوالشيوخ والأطفال والعجائز . وتذكرت فجائع اخرى !

لقد رأيت وحوشاً كاسرة انطلقت في وحشية ومباغتة وهي تحمل حقد الاجيال لتصبه على الآمنين !.

نعم كنت في وضع المقتدر وكان في وسعي ان انقذ بعضهم من الموت واعالج بعضهم بالاسعاف ولكني لم افعل . لم افعل ذلك ايها الاصدقاء ولم اعف قط لان نفسي كانت تضطرب في هواجس لا توصف . وانا امام شهيد لا تأتيه الوحوش ! تباً لهم والف لعنة على ارواحهم هكذا تركتهم وانا احمل آثارهم الاجرامية وما سلبوه من القرى العربية المجاورة .

فلما بلغت مركزي . كانت الشمس تغيب فعانقني اصدقائي وبكوا . وبكوا كثيراً عندما رأوا ما جئتهم به من « بطولات اليهود » وغنائمهم !!! وآثار رجولاتهم !!

... وسكتنا جميعا . لم يستطع احد منا ان يرد بشيء او ان يدافع عن تلك الآراء التي كان يتحمس لها قبل دقائق فلقد وضعنا الرجل امام قصة دامية تتلاشى فيها الرحمة ويغدو الإنسان فيها مقاتلا رهيباً لا يعرف سوى الثأر ! .

وكانت الشمس تغيب . شمس حمراء قانية تلقي ببقية من شعاعها على ذرى النخيل ! وتصبغ الامواج المتكسرة على الساحل . وتلقي كذلك شعاعها الدامي . القليل من شعاعها علينا فنبد وجميعاً كتماثيل مصنوعة من النحاس ! !

وهكذا كنا .. وهكذا سنبقى الى ان نرى الشروق كما رأينا الغروب !!!

بغداد : عبد المجيد لطفي

★★★